٩٩/٨/٤/٥٧

الفكر العربي

مجلة الإنماء العربي للعلوم الانسانية

تصدر عن معهد الإنماء العربي في بيروت

العدد الحادي والثلاثون كانون الثاني (يناير) ـ آذار (مارس) ١٩٨٣ السنة الخامسة

مستشارو التحرير

د. علي بن الأشهر — د. إحسان عباس — د. شكري فيصل

الشيخ عبدالله العلايلي — د. عمر التومي الشيباني — د. عبدالسلام المسدي — رئيس التحرير

د. مصطفى التير — د. معن زيادة — د. إبراهيم رفيدة — رضوان السيد

المدير المسؤول عوض شعبان

العنوان

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ٨٤١١
التاريخ / ٢٠١٤/٢/١٥

معهد الإنماء العربي
بيروت ـ لبنان

ص.ب المجلة : ١٤/٥٥٦٤ ص.ب المعهد : ١٤/٥٣٠٠

الهيئة القومية للبحث العلمي
طرابلس ص.ب ٨٠٠٤

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

الثمن : ٢٠ ل.ل. أو ما يعادلها

الدراسات العربية في أوروبا

يوهان فك
مراجعة د. حسّان علوان

جوهان فوك (Johann Fück) [١٨٩٤ - ١٩٧٤]. مستشرق ألماني معروف كاختصاصي في فقه اللغة العربية والدراسات الإسلامية. بعد دراسات في الجامعات الالمانية هالله (Halle) وفرانكفورت، حصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة الأخيرة سنة (١٩٢١)، وعلى لَقَب أستاذ في عام (١٩٢٩).

شغل منصب أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية في جامعة داكا (Dacca) في الهند، ثم تابع فيما بعد تدريسه في جامعة فرانكفورت واستدعي إلى جامعة هالله عام (١٩٣٨) ليشغل كرسي الأستاذية مكان الاستاذ (هانس بوور) (Bauer). بقي في الجامعة المذكورة حتى عام (١٩٦٢)، أي حتى بعد انضمام هذه الجامعة إلى المانيا الشرقية.

في العام (١٩٥٠) نشر كتابه: «Arabiya - untersuchungen zur arabischen sprach und Stilgeschichte» وهو من الكتب المهمة. عني بدراسة وتطور اللغة العربية. إضافة لمقالاتٍ عديدة حول: الإسلام، والقرآن، والصوفية، والمعتزلة، والنبي محمد.

نشر في عام (١٩٥٥) كتابه: (Die Arabischen Studien in Europa) حيث تظهر أهميته وفائدته في عصرنا الحاضر، بقدر ما تُطرح التساؤلات والاستفهامات حول الاستشراق وتاريخه ونهاياته. وبالرغم من الثغرات العديدة في الكتاب، إلا أنه يبقى شيّقاً للقراءة من أوجه عدة.

الكتاب تنقصه معالجة عديدة، والمختص يكتشف بأن العديد من النقاط المهمة بالكاد طُرحت: الحساسية في تاريخ الاستشراق بالمنظور الألماني المنهجي، كذلك ملاحظات مهمة لم تُعالج، وكأن الكاتب لم يكن على وعي بأهميتها. الواضح والمدهش على كل حال، ان كل الذين عملوا على الاستشراق فيما بعد استعانوا بهذا الكتاب للانطلاق بأعمالهم. الكتاب ليس بالعمل التحليلي، وغير مقسم إلى فصول، إلاّ أنه يجمع بين طيّاته (٨٧) نصاً وتلخيصاً متفاوتة الأحجام، تركز على كل الذين اهتموا بالدراسات العربية. أي كتبهم ومنشوراتهم التي حققوها؛ وبالتأكيد، بقي هذا العمل مرتبطا بالتطور المتفاوت للدراسات العربية حتى القرن التاسع

(★) Johann Fück: Die Arabishen Studien in Europa bis in den Anfang des 20. Jahrhunderts
Otto Harrassowith-Leipzig 1955, 335 p.

عشر، لكنه بقي مرتبطاً أيضاً بالتقليد أو المأثور الموضوعي للجامعة الالمانية. على كل حال. غالباً ما حصلنا على القليل من المعلومات الخاصة بالكتّاب وتاريخ حياتهم وسيرهم ـ غير أن «**فوك**» بالرغم من ذلك لا يُظهر الأهمية التي يمكننا استخلاصها من تحليل النصوص وتاريخ البيلوغرافيا.

أما موضوعات تاريخ العقليات، وتطوُّر الأفكار، والنظريات والايديولوجيات فإنها أمورٌ لم تعالج البتة. في وسط الكتاب، بل وفي لحظة ما، نشعر أننا لا نملك سوى الشعور بأننا أمام دراسة للغة مجرَّدة أو ميتة. حيث لا نعلم شيئاً عن هؤلاء الذين عاشوها وحملوها؛ وبالتالي، كل ما نعرفه عن هذه اللغة يُشكِّل محصلة للصورة التي تعكسها المرآة الأوروبية.

لكننا نعلم بأن الأشياء ليست أبداً على هذا المنوال. وكتاب فوك تحسس ذلك إلى حدٍ ما، دون قصد: بمعنى أنه، كان هناك دائماً تغيير فعّال وكثير التعقيد يصعب إدراكه، بسبب قلة دراسته أو التعرُّض له. وذلك قبل أن تخلي أوروبا، وبالتحديد الجامعة الجرمانية، المجال الحقيقي ليقتصر عملها على الفيلولوجيا ونشر النصوص. الشعور المزعج أن «**فوك**» يعلم أكثر مما يكتب. لكنه يريد أن يبقى مستقراً، رغم كل شيء، في الحقل التقليدي للدراسة العلمية الموضوعية. وهنا، يكمن الألم. لأن هذه الكتابة العلمية، تجعل من نصه ثابتاً ونهائياً. وهكذا تظهر الكتابة مشققة بسبب الثغرات، التي لم تستطع ردمها، كونها لا تفتش إلاّ عن تركيب واحد لمعرفة وحيدة، وذلك من خلال المعطيات والمعلومات المتوافرة بين يديها. وهكذا؛ فإن عدم التحقق والصدفة يلعبان دوراً أقل من التردّدات والمقاطع المشوشة والشرود البرغماتي. وقد بدا فيلهوزن (Welhausen) أقل اهتماماً بعمله على اللغة.

الموقف إذن يتطلب استجواباً، مجابهةً للجهل في اللغة، وكذلك للجهل حول اللغة نفسها. الأمر الذي يتطلب الترقي بهذا العمل المعقّد، ومحاولة تجديده في كل مرة بواسطة كل فرد. أي دراسة المحاولات والتجارب حول تركيب وتأليف القواعد، وتقنياتها الآلية. وكيف فشلت هذه المحاولات لعشرات المرات منذ ساسي (De Sacy) وعمله التأليفي للقواعد العربية، انطلاقاً من قواعد البلاط الملكي، وتجوالات الرحالة، وكتب المحادثة، والقواميس الأولى. وإذا انصب الاهتمام، ولمدة طويلة، على هذه المجالات، فهذا يعني وجوب الاقتراب، ومعالجة هذه المجالات، ليس فقط على المستوى التاريخي بل وعلى مستوى النص. وربما لا ينبغي أن نكون أكثر تطلُّباً، من كتاب يحاول على الأقل أن يجمع بين صفحاته المزيد من المعطيات والمعلومات.

نبدأ مع **بيار كليني** و **برنار كليرفو**، حيث الفائدة والأهمية تكمنان بتأليف ما يسمى بالتدوين (Clunisien)؛ نسبة إلى (كليني). من الأكيد أنه كانت هناك أعمال لـ **ماري تريز القرني** (Marie - Thérése d'Alverny). لكننا نلاحظ أخيراً. بأن ما كان منظوراً كمرحلة مظلمة وجاهلة، شهد عملاً للترجمة والمراجعات المهمة بهدف ضبط وفهم «للعقيدة المحمدية» حيث الخطر يظهر أكثر مما هو متوقع.

النشأة الأولى للقواميس اللاتينية ـ العربية، منذ القرن الثالث عشر؛ الخاصة بـ (ريمون مارتيني) والمحاولات الأولى للفرنسيسكان كانت بالتأكيد، في قسم منها، لغرضٍ تبشيري. لكن هناك أيضاً عمل جدالي، وقبل أي شيء إنه جدال ديني.

ثم يصل المؤلف إلى القرن الثالث عشر: حيث يمثّل **رايموند لول** (Lulle) بالتأكيد نمطاً غامضاً ومعقداً. إلاّ أنه يملك الرغبة في التحول والتغيير. بل أكثر من ذلك، إنه يملك البعد الروحي. والأعمال القليلة التي اهتمت بنتاجه وعقيدته وحياته، تستحق المزيد من العناية والانتباه. ويوضح «**التانر**» (Altaner) في كتابه:

(Raymundus Lullus U. d. Sprachenkanon des Konzils V. Vienne) جيداً، بأنه، ويقصد (Lulle) الرجل المزوَّد ليس فقط بالطموح التبشيري المنطقي للحوار. لكنه أيضاً رجل التغيير الحامل لثقافةٍ سبقت عصره.

بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ظهر عمل **بدرو دي الكالا** (Pedro de Alcala). من الأكيد أن احتلال العرب لاسبانيا، رافقه تأليف القواعد التعليمية العربية الأولى، والمعجم الأول. وشهدت النهضة الايطالية مع الفعالية التجارية القديمة للجمهوريات الايطالية في الشرق مجالاً للاختيار. ويشهد على ذلك الكتاب الأول لـ (Fano) الذي طبعه عام (١٥١٤). في القرن السادس عشر. شهدت فرنسا ولادة «**غيوم بوستل**» (Guillaume Postel) نمطاً معقداً، شأنه شأن لول (Lulle). و (نيكولا دي كييس Nicolas de) (Cues). هؤلاء الثلاثة يبطنون مأثور معرفة خفية حيث الديني يختلط بالسياسي في منظور غير اعتيادي.

وحقَّق الإصلاح البروتستانتي في الماني رغبته في العودة إلى المناهل، خاصة التوراة. وبفضل هذه الرغبة نشطت الدراسات على اللغات القديمة وعلى تطور الفيلولوجيا.

على كل حال، الشيء المستغرب أنه في (هيدلبرغ) أُخفيت المخطوطات التي جُلبت من الشرق بواسطة «**غيوم بوستل**». جينيوس، ترمليوس، سكاليجر، (Junius, Tremellius, Scaliger) بدأوا ـ وبنجاح متفاوت ـ الترجمة الألمانية. لكن الاهتمام البابوي بالمسيحية الشرقية، قاد منذ مناهضة الإصلاح، مسيرة الطباعة العربية، التي نشطت سابقاً بفضل آل مديتشي (Les Medicis)، حيث انصب الاهتمام بشكل جدي على تأثير الكتب الدينية. علماً أنه كانت هناك طبعةٌ لترجمة القرآن منذ عام (١٥١٦).

إنّ دور الموارنة في إيصال اللغة العربية لم يُدرس حتى الآن إلاَّ من وجهة نظر سردية. ومن الأفضل مشاهدة النصوص بشكل عملي، وذلك لمعرفة كيف لعب هؤلاء دوراً حيوياً وسيطاً استكمل لمدة طويلة في فرنسا وايطاليا.

وفي القرن السابع عشر، برز شخصٌ مهمّ يدعى «أربنيوس» (Erpenius) كمترجم وكاتب للقواعد العربية. طبع عدة مخطوطات، وحقق ما يسمى بالتعليم الجامعي للغة العربية.

غوليوس، وصاموئيل بوخارتيس، (Golius, Samuel Bochartus)، والانكليزي پوكوك (Pocoke) اشتهروا أيضاً بنشر النصوص العربية.

وفي القرن السابع عشر نشطت أوروبا بشكل حيوي لتستخلص، ليس فقط صورةً عن اللغة العربية، ولكن لتحقِّق معرفة عملية دقيقة وممكنة للغة العربية. منذ أن نشر «هربيلو» (Herbelot) مكتبته الشرقية في العام (١٦٩٧)، (شيلتنز، وويليم جونس، ورايسكه). (Schultens, William Jones, Reiske) استكمل المهمة في القرن الذي تلاه. إلاَّ أن **ساسي** (Sacy) يبقى النمط الأكثر أهمية [١٧٥٨ - ١٨٣٨]. يمكننا اعتبار ساسي (Sacy) المحرّك الأول للدراسات العربية في أوروبا في القرن التاسع عشر، مع إشارتنا لغموض وتشويش الذوق نحو العربية في القرن الثامن عشر. فتلاميذه شغلوا كل مراكز التعليم تقريباً في أوروبا في القرن التاسع عشر. وكما دُفعت ميوله الفيلولوجية إلى نتائجها القصوى بفضل الفيلولوجية الألمانية التي صُقلت بفضل العبرية والعمل على التوراة. إنه من غير المفيد كما اعتقد متابعة مدونة الموضوعات المطروحة لـ «فوك»، كونه يُغطي، انطلاقاً من ساسي موضوع الاستشراق الأوروبي بطريقةٍ منهجية مركِّزاً على السِّيَر الذاتية والمنشورات المختلفة الميول.

المعلومات مكثَّفة ومحلَّلة وغالباً ما كانت دون تصدُّع. استكملت فيما بعد بفضل **شنيرر** (Schnurrer) مع مزيد من المعلومات. ولكن الحيِّز الفعّال لكل ذلك يمثّل بمجمله طرحاً لبعض الأسئلة، منها: العرب كيف كانوا، وكيف أصبحوا؟ إن الفكرة الجيدة أحادية الجانب تمثِّل شكلاً مملاً، عندما لا يكون هناك مخاطب آخر سوى النص. كيف عمل النَقَلة؟ كيف عمل كلٌ من نيجري (Negri) ودايتشي؟، بل كيف عمل المترجون، وماذا يمكننا القول عن حقيقة نصوصهم وهكذا ننتهي إلى القول بأن الكتاب يشكِّل بياناً شبيهاً ببيان **هاراسويتز** (Harrassowitz)!، كما أنه في الواقع يظهر بوضوح الجانب الأقل كثافة وانفراجاً للعلم الألماني (والذي لم يتعارض بالضرورة مع «الدقة الفرنسية»). إن عرضه للفهرس جذّاب، لكن حقيقة النص تلعب غالباً أدواراً، نرفض البوح بها لاعتقادنا الدائم، بأننا نتحكَّم بالنَّص طالما أن هذا الأخير ينبسط على الورق.

ولكن السؤال: ماذا يساوي نصٌ ميّتٌ مقتولٌ (بواسطة المنهج)؟

كل الألمان لم يكونوا مالكين لنشوة اللغة العربية التي امتاز بها **رايسكه** (Reiske) والتي كلّفته غالياً.

ولكن هل نجاح **نولدكه** أو **فيلْهوْزِن** يبرِّر نهجاً طُرح في غير زمانه؟.